الأرليزية أو الحب القاهر

لألفونس دوديه

بقلم الأستاذ أحمد حسن الزيات

يمر الهابط من طاحونتى إلى القرية بمنزل ريفى أقيم على جانب الطريق فى صحن فناء كبير يظلله الشجر. وهذا المنزل هو المنزل الحق لرب الأسرة البروفنسى بآجره الأحمر، وواجهته العريضة، ونوافذه المتنافرة، ودوارته الهوائية التى تدور على سمته، ورافعة القش التى تقف على جداره، وحزم الدريس التى تتناثر على سطحه

لماذا كان هذا المنزل يروع قلبى؟ ولماذا كانت بوابته المغلقة تقبض صدرى؟

لم أكن أستطيع تعليل ذلك؛ ولكن المنزل مع هذا كان يبعث الرهبة فى نفسى.

كان حوله نطاق من السكون العميق الرهيب الشامل: فالكلاب تنظر ولا تنبح، والدجاج تنفر ولا تصيح!

أما فى الداخل فلا تسمع صوتا ولا حركة! لا صوت إنسان ولا حركة حيوان! ولولا الستائر المضروبة على الشبابيك، والدخان المتصاعد من الأسطح، لحسبت المكان غير مأهول

كنت بالأمس عائدا من القرية ساعة الهاجرة؛ وكانت شمس الظهيرة تمج القيظ فيلفح الوجوه؛ فكنت أتقى وقدتها بالسير فى ظلال الجدر وفى أفياء الشجر. فلما صرت أمام هذا المنزل وجدت عمالا يحملون عربة بالدريس وهم سكوت. وكانت البوابة مفتوحة، فصوبت فى المكان نظر العابر فوجدت فى آخر الفناء شيخا جلله الشيب وأوهنه الكبر. قد ارتدى سترة أقصر مما ينبغى، وسراويل مزقتها يد البلى من كل جانب، وقد اتكأ على منضدة عريضة من الحجر، ووسد رأسه على راحتيه، فوقفت. وحينئذ دنا منى أحد العمال وقال بصوت خافض:

شت! إنه السيد! وهو على هذه الحال التى تراها منذ وقع لابنه ذلك الحادث الأليم

وفى هذه اللحظة مرت بنا امرأة وغلام صغير يلبسان السواد ويحمل كل منهما كتاب صلوات ضخم مذهب. فأتبعتهما بصرى حتى دخلا المنزل. فقال الرجل: وهذه هى السيدة! والغلام الذى معها هو

(١) الأرلزية الفتاة المنسوبة إلى (أرل) إحدى مدن فرنسا الجنوبية. وقد كتب قصتها ألفونس دوديه بهذا الإيجاز ثم جعل منها مسرحية من نوع الميلودرام فى ثلاثة فصول وخمسة مناظر.

ابنها الأصغر . وهما عائدان من القداس ، فإنهما لا ينقطعان عن شهوده كل يوم منذ انتحر ابنها الأكبر . آه ! ياسيدى ! لشد ما لاعهم الحزن وأرمض جوانحهم الألم !

ولقد أصر الأب على أن يرتدى ثياب الميت نهاره وليله ، ولم يستطع أحد أن يحمله على خلعها . ثم حرك الرجل العنان فى يديه وقال بلسانه : شى ! فاهمزت العربة تريد أن تسير ، فقلت للسائق : أركبنى معك فإنى أريد استقصاء هذا الحديث . ومن فوق العربة وعلى عل الدريس أخذ الرجل يروى لى هذه القصة المحزنة :

كان يسمى جان . وكان فلاحا فى العشرين من عمره ، بارع الفتوة ، صلب العضل ، حيى الطبع ، طلق المحيا . وكان على حظ عظيم من الجمال والرونق فامتدت إليه عيون النساء . ولكنه كان فارغ القلب منهن إلا من واحدة : أرليزية صغيرة رآها مرة فى ميدان (أرل) ترفل فى القطيفة والحرير ، فشغفت قلبه حبا . وبلغ أبويه الخبر فلم ينظرا أول الأمر إلى هذه العلاقة نظرة الرضا ، لأن الفتاة قد انتشرت لها فى الناس سمعة بكثرة الدلال وقلة الحشمة ؛ ولأن أهلها لم يكونوا من أهل هذه البلاد ولا من ذوى النبالة

إلا أن جان قد أمضى عزيمه على أن يظفر بفتاته مهما يكلفه هذا الظفر ؛ حتى أعلن أنه سيموت إذا لم ينلها .

فلم يسع أبويه إلا أن يغضيا على مايقال فى الفتاة وقبلا أن يزوجاه منها بعد الحصاد

وفى مساء يوم من أيام الآحاد أدبت العائلة مأدبة أشبه بوليمة العرس . نعم لم تحضرها الخطيبة ، ولكنهم تقارعوا على ذكرها وشربوا الكؤوس نخبا بعد نخب . وبينهم لفى شهوة الطعام ونشوة المدام إذ وقف بالباب رجل يطلب فى صوت مضطرب أن يتحدث إلى السيد إستيف نفسه . فقام إستيف عن المائدة وخرج يلقاه على مدرجة الطريق . فلما دنا منه قال له الرجل : « سيدى ! إنك تزوج ابنك من ساقطة خالتها سنتين كاملتين . وما أدعيه سأثبته . إقرأ هذه الرسائل . ولقد كان أبواها يعلمان ما كان بينى وبينها من أمر ، فوعدانى الزواج منها ؛ ولكنهم أخلفوا الوعد وخاسوا به يوم تقدم ابنك إلى الفتاة . فلاهم ولا هى يريدون اليوم أن يصلنى بهم سبب . ولقد كان الظن ألا تصلح هذه الحسناء لغيرى بعد أن حدث بيننا ما حدث »

فقال السيد إستيف بعد أن سمع من الرجل ما سمع ، وقرأ من الرسائل ما قرأ : حسن ! ألا تدخل فتشرب قدحا من المسكات ؟

فقال الرجل : شكرا ! إن ما بى من النهم أضعاف ما بى من الظمأ . وانصرف

وعاد الأب إلى مكانه من المائدة ووجهه وصوته لا ينمان على شئ مما يكظمه . واستأنف القوم طعامهم وشرابهم حتى انتهت المأدبة كما بدأت فى سرور وبهجة . فلما تقدم الليل خرج إستيف وابنه إلى الحقول فلبثا فيها طويلا ثم عادا . وكانت الأم لا تزال تنتظرهما على قلق . فلم يكادوا يجتمعون حتى قال رب الأسرة لزوجه وهو يقدم إليها ابنه : عانقيه بالمرأة . إنه بائس !

***

لم يجر بعد ذلك ذكر الأرليزية على لسان جان ، ولكن قلبه لا يزال كلفا بها . وقد لج به هذا الكلف منذ أروه إياها وذراعها فى ذراع آخر . إلا أن كبرياءه كانت تأبى عليه أن يبوح بمكنون حبه ، وهذا هو الذى قتله . كان كثيرا ما يقضى أياما بأسرها منعزلا فى ركن من الأركان لا يتكلم ولا يتحرك . وكان فى أيام أخر ترتد حاله إلى الضد ، فيقبل على الأرض حاسرا عن ساقه ويده ، فيعمل ثم يعمل حتى ينجز وحده مالا ينجزه إلا عشرة . فإذا أمسى المساء اتخذ السبيل إلى (أرل) فيمشى قدما حتى يرى فى حمرة الشفق قباب الأجراس الدقيقة صاعدة فى سماء المدينة ، فيعود عندئذ أدراجه ولا يذهب إلى أبعد من ذلك

فلما رآه أهله على هذه الحال ، أليف الحزن وأنيسه الوحـــــدة ، لم يدروا ماذا يصنعون ؟ وأشفقوا عليه أن يصيبه مما يعانيه سوء . فى ذات عشاء قالت له أمه وهى ترمقه بعين عبرى : « اسمع ياجان ! إذا كنت تريدها على علتها أنلناك إياها »

فأطرق الأب رأسه ، وضرّج الخجل وجهه أما الابن فقد أومأ إلى أمه أن لا ، وخرج

ومنذ تلك الليلة غير جان أسلوب حياته كان يتصنع المرح ويتكلف السرور ليطمئن والديه على حاله . وكان إذا أقبل الموسم الذى يسمون فيه العجول والخيول بالسمات المميزة ، أقبل هو أيضا على المرقص يحاصر ، وعلى الحانة يشرب ، حتى قال الأب : « الحمد لله ! أبلّ المريض وسلا العاشق »

ولكن الأم كانت على خلاف زوجها . توجس فى نفسها خيفة ، وتتوقع لابنها شرا . فتعقبت خطواته ، وراقبت سكناته وحركاته ، وأيقظت لتعقبها ومراقبتها العين الساهرة والقلب الشاهد

وكان جان ينام مع أخيه الأصغر فى غرفة مجاورة لبيت دود القز . فجاءت الأم المسكينة بسريرها فأقامته بجانب هذه الغرفة . بحجة أن الدود ربما احتاج إليها أثناء الليل !

وبعد قليل أقبل عيد القديس (إلوا)

شيخ أرباب الأسر ، فكان عيده فى العزبة يوم متاع وقصف : كانت صنوف الحلوى تقدم إلى كل إنسان ، ودنان الخمر تسيل فى كل مكان، والصواريخ تتفجر فى الأرض ، والقذائف تفرقع فى السماء ، والمصابيح ذات الألوان تكلل أغصان الشجر ، والهتاف بذكرى القديس تشق أجواز الفضاء ، والرقص الريفى ينزو بالناس نزو الجنون، حتى بلغ الطرب بالابن الأصغر أن يحرق قميصه الجديد ؛ وبعث على جان نفسه دلائل الغبطة فحمل أمه العجوز على أن ترقص ؛ فرقصت المسكينة وهى تبكى من طغيان السرور

وانتصف الليل فأوى كل إلى فراشه . وكان القوم من فرط ما قصفوا وعربدوا محتاجين إلى النوم فناموا . إلا جان فلم تكتحل عينه بنوم ، ولم يطمئن جنبه إلى مضجع . وقد حكى أخوه أنه بات طول الليل ساهدا ينتحب ويتململ

لشد ما كابد المسكين ! لقد قلت لك إن لدغته كانت شديدة

فلما غورت النجوم وأسحر الليل ، سمعت الأم إنسانا يجتاز الغرفة وهو مسرع . فسبق إلى وهمها خاطر فظيع فصاحت :

« جان ! أهو أنت ؟ »

ولكن جان لم يجب . لقد كان وقت أن صاحت على السلم . فهبت الأم فزعة مسرعة وهى تنادى !

« جان ! إلى أين تذهب ؟ »

ولكن جان لم يجب . لقد صعد إلى أعلى البيت فصعدت الأم وراءه وهى تصيح :

« جان ! ولدى ! استحلفك بالله »

ولكن جان لم يجب، وأغلق من ورائه الباب وأحكم رتاجه . فوقفت الأم تتضرع وتقول : « جان ! جانو ! أجبنى ! ماذا تريد أن تصنع ؟ »

وأخذت تتحسس موضع الزلاج بيديها المرتجفتين المرتعشتين ؛ ولكن صوتا طرق أذنيها ، فسمر يديها : صوت شباك يفتح ، وصوت جسم يسقط . وانتهى على بلاط الفناء كل شيء ! لقد كان يقول المسكين لنفسه : « إنى أحبها حبا غلب على عقلي وغطى على بصرى ، فلا حيلة إلا أن أرحل »

ما أبأس قلوب بنى آدم ! حتى الاحتقار الذى يقتل النفس لم يستطع أن يقتل الحب !

ولما أصبح الصباح واستيقظ أصحاب القرية أقبل بعضهم على بعض يتساءلون : من الذى يصرخ هذا الصراخ المروع قريبا من دار استيف ؟ وما كان هذا الصارخ الهالع إلا أم جان ارتمت عارية على بلاط الفناء أمام المنضدة الحجرية المغطاة بالندى والدم ، وأخذت تصرخ وتعول وبين ذراعيها ابنها الصريع !

أحمد حسن الزيات